على رجاء الوحدة المسيحية

عندما تشب على هذا الحلم منذ نعومة أظفارك وتتخذ الفكرة احترافا ويطل عليك السراب تصدمك الخيبة وعلى ذلك ترجو لأن الكلمة تريد منك ذلك. وللناس علينا حق الصدق وهو ان آفاق الوحدة ملبدة كالغيوم السوداء في هذا الشتاء وكأن الله أرخى الحبل لابليس المتربع في الكنائس.

ازاء ذلك تذمر المسيحي العادي من الانقسام وابتعاده عن اللاهوتيين الذين يتدارسون الموضوع ويرون العقبات الكأداء دون التحامنا الكامل كما يرون الصعوبة في ترتيب البيت المسيحي الواحد على صعيد التنظيم الكنسي والهيكليات (ادارة مركزية ام غير مركزية لتبسيط الامور). والمؤمن البسيط في بلدنا يزين له ان القصة صراع على الرئاسات. فالمسألة ما كانت ولن تكون بأن اقول للزميل من مذهب آخر: قم لأجلس مكانك. ثم ما عدا المقام البابوي المدعو بحكم البحث التاريخي ان يتقلص او ان يتغير وجهه ليوافق ممارسة الالفية الاولى سيلازم كل بطريرك أو اسقف مكانه. فليس بين المسؤولين في العالم تنافس. ليست تلك هي المسألة.

أجل هناك اشكالية متعلقة بهذا الشرق ومشكلة مجانسة لها في المهاجر. فاللاهوت المسيحي الثابت يقول: على المدينة الواحدة اسقف واحد وفي الاقليم بطريرك واحد. كيف تحل هذه العقدة وعلى الكرسي الانطاكي – وهو واحد – يجلس اليوم خمسة بطاركة. فعندما وضع المبدأ القديم لم تكن الكنيسة تلبس قومية ما ولم تكن ملل ولا طوائف وقد غدت هذه وقائع تاريخية لست ارى سبيلا للرجوع عنها. وليس عندي حل قانوني منسجم مع تراث اكيد.

وعندك في المهاجر وضع بالغ التعقيد اليوم اذا اعتبرنا النواحي القومية. فالعرب الارثوذكس في اميركا عليهم مطران واليونانيون كذلك والروس والصرب وسواهم كذلك. كيف تحل هذه العقدة والقلب البشري يطلب لك رئيسا يتكلم لغتك. لا يبدو – على كل محاولات التنسيق – ان هذه المشكلة وجدت الى سبيلها حلا.

الى هذا فالشعب عندنا يريد كله يوما واحدا للفصح. ومع ان هذه القضية وجدت طريقها الى حل قانوني نظري الا ان الشعوب التي ليس فيها اختلاط طوائف كما روسيا او اليونان او اسبانيا او ايطاليا لا تبدو لي متحمسة لتغيير تقاليدها ولو بدل في ذلك الرؤساء. فالكنائس لا تقاد كما اوركسترا مطواعة. ثم عاشت الكنيسة واحدة حتى المجمع المسكوني الاول المنعقد السنة الـ٣٢٥ وليس عندها للفصح يوم واحد. واخيرا يقام العيد واحدا في مصر وغيرها والكنائس منقسمة. ومن المؤكد ان التعييد المشترك لن يزيل شيئا مما يعوق الوحدة في الاساس والجوهر.

* * *

لعل خير ما يقوم به المؤمنون ان يقيموا الصلاة دائما في سبيل التقائهم في كنيسة واحدة. ذلك ان الوحدة منة من الله وهو المنير عقولنا والداعي الى ان نتوب بعضنا الى بعض اذا ما تاب هو الينا. هي قضية صبر خلاق وانتظار ان يلتحق المتباطئ بمن كان اسرع. والمتباطئون يبدون لي من كل ملة ومنهم الرافضون لكل تجديد ولكسر الطوق التاريخي الذي خنقوا به انفسهم. الصعوبات ليست متصلة حصرا بالعقيدة. فهناك حلحلة لمركزية روما لا بد منها ويشكو منها كاثوليك العالم كله. فاذا تمت الشركة بيننا على القواعد القديمة ماذا يبقى من الكوريا او دوائر الفاتيكان القائمة على المركزية؟

واذا احببت ان انتقد العقلية الارثوذكسية السائدة في البلدان التي يتراص فيها الشعب الارثوذكسي وضعفت فيها مرونة العقل فيبدو لي ان الشعور القومي خارج دنيا العرب ورومانيا يتقبل بصعوبة نفسية كبيرة المقام البابوي ولو لان هذا ليواجه الانصهار. ان البابا – في حالة المصالحة – ستبقى له امتيازات يقر بها اللاهوت الشرقي. هل سيقبل العالم الارثوذكسي في الممارسة ان يكون اسقف روما البطريرك "الاول بين اخوة متساوين"؟ هل ستنفطر القلوب من هذه الجهة وتلك ليتقبل كل منا الآخر ام ان الكنائس لم تتعلم بعد – بالقدر الكافي – الحق في الاختلاف؟ كيف نتروض روحيا على قبول تقاليد وعادات اخرى بحيث نترك للزمان والنعمة الالهية ان يعيدانا عما يجب العودة عنه في اوان الرضاء؟ على سبيل المثال المعمودية بالنضح لا بالتغطيس تبدو للشرقيين انحرافا عن تراث مشترك وكذلك تناول القرابين بلا الكأس وقبل مسحة الميرون والزام الكهنة جميعا البتولية. مع ذلك اتصور ان الارثوذكسيين الذين وضعوا مئات من الكتب بكل اللغات ضد هذه الممارسات يمكنهم الا يجعلوا العودة عنها شرطا للاتحاد بحيث تذلل المساكنة هذه المصاعب.

يجب ان نرى الفرقة القائمة بيننا وان نبكي عليها وان نسعى بالفهم وحرارة الدعاء الى ان نزيلها. لكن الفرقة لا تفنى اذا انت انكرتها واقمت بين شعوب الكنائس اختلاطا يفترض اننا بتنا واحدا ونحن لسنا كذلك. القاعدة انك ابن كنيستك ما دامت المأساة فاذا تجاهلت التباعد القائم بذهابك الدائم الى كنيسة اخرى لا تكون حللت مشكلة. انت تغطي بذلك الانقسام كما يغطي الجريح جرحه بضماد لكن الضماد لا يشفي. هو يشعرك بأن الجرح تحته. ان ينتصب كاهن كاثوليكي ليقول لأبنائي: لا فرق بيننا وبينكم فمصيبة اذ يكون بذلك غير صادق ويسعى الى توسيع نفوذه. واما اذا اعتقد ذلك حقا فيكون جاهلا والمصيبة اعظم. ان يقف كاهن كاثوليكي ويدعو كل الحضور الى المناولة وهم من غير كنيسته فهذا يعني انه لم يقرأ "الدليل المسكوني" الصادر عن الفاتيكان وهو ليس اقل تشددا من الموقف الارثوذكسي، وهذا يعني انه لا يفهم ان ليس من شيء اسمه مناولة اسرار خارج وحدة العقيدة. هذا التلاقح الذهني بين المسيحيين المنقسمين قبل اتمام "زواج" الكنائس في ما بينها انما يدخل خللا كبيرا في مشروع التقارب.

ان العلمانيين وحدهم لا يستطيعون ان يفرضوا الوحدة وفي كل حال ليس هذا الانصهار يتممها بالمناولة المشتركة. ولا يكفي ان يعتقد فريق انه بهذا يحب فالأهم ان يشعر الفريق الآخر بأنه محبوب. الارثوذكسيون يشعرون ان هذا الاسلوب شلح وليس فيه فكر. والاخطر في ذلك انهم يحسون بأن هذه الطريقة متابعة لسياسة الاقتناص القديمة ولكن بوسائل اللين. انت لا يمكنك ان تدخل غراما لا يستسيغ الطرف الاخر وسائله.

كل هذا يعني ان الاندماج لا يتم الا بالتوافق العميق المحب وفي صبر جميل والصبر من وجوهه ان تنتظر الاخر ولو تأخر عن الموعد. ولا يصبر أحدنا الا على من يحب. وان تحب يعني ان تتسامح بالفروق غير الجوهرية بينك وبينه. ويمكنك ان تصطدم بصديقك على ان تثق به ويثق بك. المخاوف التي في ذهن الكنائس المستضعفة لا يبددها الا تغيير السلوك في الكنائس التي كانت في الماضي القريب غازية. لا يكفي الحديث الغرامي لتبديد المخاوف. حسن النية تثبته بالعمل، بموقف يجعل كل فريق كنسي مطمئنا كليا الى ان الفريق الآخر لا يسعى الى التوسع عن طريق التشدد او عن طريق التميع. لا حاضن ولا محضون. نحن معا في حضن الآب في تواضع كلي. نحن في فقر الى مَنْ من عنده تنزل كل موهبة. المواهب الغنية والطهارة اذا ابتغيناها هي شوقنا الى الوحدة المرتجاة.

المطران جورج خضر